

مخطوط غير منشور للمطران جرمانس فرحات «رسالة وجيزة في تعليم الصلاة العقلية»^(١)

حقّقه وقدم له الأب سليم دكاش اليسوعي^(٢)

من التأليف المغمورة، ذات الموضوع الروحي، وهي غير منشورة هذه الرسالة للمطران جرمانس فرحات الحلبي المعروف بسيرته المسيحية الإنجيلية وإنتاجه ذي الشعب الثلاث: الأدبية والليتورجية الكنسية والروحية. وهذه الرسالة، التي وجدناها في المجلد المخطوط الذي يحمل الرقم ١٥٧ من مكتبة دير البناث للرهبانية المارونية اللبنانية على الصفحات ٧٣ إلى ٨٨، هي أثر ثمين من آثار فرحات التعليمية الروحية ولا أظن أن كثيرين استطاعوا أن يكتبوا، من بين أبناء كنائس الشرق، في هذا المجال كما كتب المطران فرحات شكلاً ومضموناً. ولا شك في أن هذه الرسالة لها وزنها وقيمتها في إطار التراث الروحي الشرقي لأكثر من سبب، فضلاً عن الشهرة التي اشتهر بها قلم كاتبها.

نلاحظ أولاً أن المطران فرحات، وقد تبوأ منصب الرئيس العام

(١) سبق أن حقّقنا في العدد السابق من المشرق (كانون الثاني - حزيران ١٩٩٧) نصّاً غير منشور للمطران فرحات رسالة ستون تأملًا في آلام يسوع وقيامته، وهي رسالة لها ارتباطها بالنص الذي ينشره في هذا العدد، إذ إنها تمّد مادةً للصلاة العقلية. وسجّدر لفت النظر إلى أن تاريخ سنة وفاة المطران هو ١٧٣٢ ميلادية وليس ١٧٢٣ كما ورد في مقننة المقال السابق (راجع الصفحة ٥٧) وأن النسخ تمّ بعد مئة وسبع سنوات من وفاة المطران فرحات وليس بعد سبع سنوات (راجع ص ٥٨).

(٢) رئيس تحرير المشرق.

لرهبانيته (١٧١٦-١٧٢٥)، فكتب ونشر، في هذه الفترة، نصوصاً عديدة في مجال التوجيه الروحي، منها رسالة الإيضاح لرسوم الكمال^(٣) والمحاورات الرهبانية^(٤) وغيرهما من النصوص.

فالعلامة فرحات له معرفة عميقة في مختلف المواضيع والقضايا الروحية، إذ بالإضافة إلى اهتمامه بالشأن الروحي إبان رئاسته على رهبانيته، فهو قد اهتم اهتماماً عميقاً بمعرفة التراث الروحي في بُعديه الشرقي والغربي حيث إنه نشر مختصر كتاب الكمال المسيحي للأنبا ألفونسوس رودريغوس الراهب اليسوعي وكذلك كتاب بستان الرهبان، المعروف بين رهبان الشرق وذو المرجعية الشرقية وقد صدره المطران فرحات بمقدمة طويلة.

ونلاحظ ثانياً عندما نعود إلى نص الرسالة الوجيزة في تعليم الصلاة العقلية أنَّ المطران فرحات، «الدقيق الفهم»^(٥)، العارف بواطن الأمور، ينهل من معين الروحانيين الشرقيين وكذلك، من مصادر الغربيين، ما يراه مناسباً للعباد في زمانه، وهو يعطي للتقليد مكانه ولبعض الاتجاهات الحديثة، التي كانت بارزة في أيامه، البُعد الواقعي اللازم.

فالمطران فرحات يركّز اهتمامه على موضوع «الصلاة العقلية» فيكرّس لها رسالة أو بحثاً مفرداً خاصاً، وهذا لافت للنظر، حيث إنَّ التقليد الروحي، شرقاً وغرباً، لم يكن يُفَرِّق بين الصلاة والتأمل والمشاهدة والقراءة الروحية تفريقاً دقيقاً، بل إنَّ كلّ هذه الأفعال كان يُنظر إليها عبر وظيفتها كرياضات تهدف إلى اتِّحاد العابد بالله. فالصلاة العقلية ليست سوى الصلاة الباطنية الصامتة بالمقارنة مع الصلاة الشفهية

(٣) نشرها الخوري ميشال بريدّي في العام ١٩٥٣، مطابع خبّاطه، طرابلس.

(٤) نشرها الأب أنطونيوس شلبي في حريصا في السنة ١٩٢٢.

(٥) هذا الوصف جاء في مذكرات المطران قرآلي في كتاب حياته، بقلم المرحوم الخوراسقف بولس قرآلي، الجزء الأول، ص ٧٨، مطبعة العلم، بيت شباب، السنة ١٩٢٣.

اللفظية^(٦). والواضح أيضًا أنَّ النظام الرهباني في التدريب على الصلاة كان يركّز على الحياة الجماعية والليتورجية حيث إن الحياة الديرية النسكية كانت وحدة متماسكة، كما كانت حالة المجتمع كذلك.

إلا أنَّ التحولات التي طرأت على الحياة الديرية والكنسية، مع بروز النهضة وبداية الإصلاح البروتستنتي، وضرورة تمتين إرادة العابد والراهب وتنويرها وتقويتها بوجه خاص. فالإرادة تتسلّح وتمتّن بواسطة السلاح الأقصى أي التأمل، أو الصلاة العقلية. فهذا التأمل لم يمد التأمل العاطفي، وهذا ما يشير إليه فرحات في بداية القسم الثالث من رسالته، بل إنَّه التأمل العقلاني، الهادف والقاصد، النظامي والمريد، كما صاغته وأوَّلًا «التقوى الحديثة» (Devotio moderna) وهو تأمل يعطي الإرادة الأسباب التي تجعلها متينة^(٧).

ومع نشأة الرهبانيات الحديثة، كالرهبانية اليسوعية وغيرها، كان على الراهب أن يتكوّن ويتدرّب على الجهاد الفردي في مواجهة التزعة الطبيعية التي كانت تتمدّد في المجتمعات الأوروبية وغيرها، في حين أنَّ التدريب على الصلاة العقلية والتروّض على تقنياتها لم يعد حصراً على الراهب الناسك بل إنَّ العلماني أخذ يستطيع تملكها. وفي هذا الإطار، لم تعد الحياة الروحية مرتبطة فقط بالمشاهدة «التاوريا» فقط بل أصبحت وظيفتها «عملية». إنَّها تهدف، عبر الصلاة العقلية الفردية، إلى «خدمة الله» لا إلى «تذوق الله» فقط، بالرغم من أنَّ الوجه التقليدي للصلاة لم تختفِ تمامًا حتّى في الإطار الغربي مع القديسة تريزيا الأليّة وفرنسيس السالسي وغيرهما. إلا أنَّ الفردية النفسية أصبحت من الثوابت في مجال الحياة الروحية. أمّا المطران فرحات فإنَّه يشدّد من الناحية على وظيفة الصلاة العقلية في تنظيف النفس وتطهيرها وعلى عبادة الله عن طريقها (راجع تبيّه

(٦) راجع رسائل يوحنا البلياني، نقلها عن السريانية الأب سليم دكاش اليسوعي، منشورات دار المشرق، ١٩٨٥، ص ٧٤.

(٧) راجع مقالة «Prières» في موسوعة CATHOLICISME، الجزء الحادي عشر، منشورات Letouzey et Ané، ص ٩٤٢.

الجزء الأول، الاستعداد وكذلك تعريف الصلاة العقلية). إلا أنه يربط بين الصلاة والعمل الدنيوي، إذ إن العمل الدنيوي هو المجال الذي فيه تُحفظ المقاصد التي اكتسبتها في الصلاة العقلية (التيه الثاني، الجزء الرابع، القصد).

وإذا أردنا أن نتوقف بعض الشيء على عناصر التأمل الأساسية كما حددها جرمانس فرحات، رأينا أنه يحصرها بثلاثة هي: «الاعتبار والعاطفة والقصد، والبقية بمنزلة المقدمة والخاتمة» (راجع بداية القسم الخامس من الرسالة)، وهو يرى في القصد «غاية الصلاة العقلية» (راجع الجزء الرابع: القصد). وهذا التشديد على القصد، موقفاً نهائياً للتأمل في إطار الصلاة العقلية، هو معروف وشهير في تاريخ الحياة الروحية وآدابها منذ القرن الرابع عشر في الغرب، عندما أخذت حركة «التقوى الحديثة» تولي القصد أو المقاصد التي يتوصل إليها التأمل في تأمله الفردي (intention) المكان أو الإطار الضابط لمجمل عملية التأمل. ورتبة القصد تأتي بعد العاطفة والاعتبار.

ويحدّد فرحات موقع القصد في الصلاة العقلية على الوجه التالي:

- إن التقليد الرهباني لم يكن بعيداً عن التركيز على إرادة التأمل في أخذ المقاصد التي تلائم حياته الروحية. فعندما يقول القديس بوناونتورا إن فائدة الصلاة العقلية هي أن يهذب الإنسان ذاته، فهذا يعني أن المصلي يلزمه أن يقصد في صلاته فعل أمر محدّد (راجع القسم الأول: في تعريف الصلاة العقلية...). وتأويل قول القديس بوناونتورا، كما أجراه فرحات، لفت للنظر حيث إنه لا تعارض بين القديم والجديد، بين التقليد والحداثة.

- وإذا كان القصد غاية الصلاة العقلية لما فيه من فائدة، فإن الاعتبار هو الخطوة الأولى الأساسية التي يعتمد عليها التأمل، والاعتبار هو تفكير في حقيقة الموضوع ومخاطبة النفس ذاتها لرؤية الحقائق التي نتم فهمها. ودور الاعتبار أيضاً هو في إقناع النفس بفائدة الموقف الصحيح،

عن طريق الموازنة بين الريح والخسران، حيث إنَّ العقل يضطلع بدور مهم في هذا المجال.

- ويتحدَّث فرحات عن العواطف فيقول: «إنَّ الاعتبار يؤثر حركات حميدة ثلاث موضوع التأمل، وهذه الحركات تُسمَّى العواطف (. . .) وهي بمتزلة الأسباب لأنَّ النفس تنعطف بها» (راجع الجزء الثالث: العاطفة). والواقع أنَّ الاعتبار يقود إلى هذه العواطف، فتأتي الإرادة وكذلك العقل لتبنيها. إلَّا أنَّ فرحات، المتوحِّد الروحاني، ذا الخبرة، لا يستثني أن تأتي العواطف عن طريق القلب قبل الاعتبار، أي أن تأتي عن طريق التدخُّل المباشر لقوَّة النعمة في وجود المتأمل.

- وهكذا يأتي القصد مرقفًا يتَّخذه المتأمل، مستفيدًا من الاعتبار والعاطفة، للبقاء في حياة الروح والفضيلة. إنَّه العزم الفرديُّ على ترتيب النفس بالتفاعل مع الفضيلة والمحبة. إنَّه فعل اكتساب معنى الموضوع في إطار الحياة العمليَّة.

تصميم مختصر لتطور حركة الصلاة العقلية عند جرمانس فرحات

إنَّ حديث المطران فرحات عن الصلاة العقلية يفترض ثلاثة أمور مبدئية:
أولاً: إنَّ غاية الحياة المسيحية هي الكمال في الاتحاد.
ثانياً: إنَّ الكمال يفترض طرُقاً محدّدة (التنظيف، التوير والاتحاد...).
ثالثاً: وسائط الكمال وهي على قسمين: خارجية (كالإرشاد، والتوبيخ،
وقبول الأسرار والمحافظة على الأدب) وباطنية (كفحص الضمير
والرياضة والصلاة العقلية...).
إذن، الصلاة العقلية هي جزء من الوسائط الباطنية التي تساعد العابد في أن
يحقق غاية سعيه إلى الكمال.

الصلاة العقلية

ماهية وفائدة واستعمال - عمل فردي

التأمل هو فعل تحقيق الصلاة العقلية

موضوع التأمل نوعان: معنوي وشخصي مكاني

المعنوي هو فعل الفكر والفهم والإرادة

الشخصي المكاني هو فعل المخيلة والفهم والإرادة

الصلاة العقلية ليست مرتبطة بالعاطفة فقط بل بالقصد خاصة.

أجزاء الصلاة العقلية الأساسية: الاعتبار والعاطفة والقصد (بالمختصر)

وسبعة (بالتوسع): الاستعداد، الاعتبار، العاطفة، القصد، الشكر،
والتقدمة، والطلبية.

وهكذا يبدو العلامة فرحات عارفاً بموضوعه وبما يريد عبر صياغته للرسالة في تعليم الصلاة العقلية. فالهدف هو أن يتسلح الراهب والعابد بسلاح الله، إلا أنه لن يتمكن من ذلك إن لم يتحرر من الأهواء، والتأمل العقلي هو الوسيلة الذي سيبلغ بها إلى ذلك. فارتفاع القلب والعقل إلى الله هو أمر أساسي في الحياة الروحية، وهذا الارتفاع لن يتحقق فقط عبر الحياة الجماعية الديرية وأشكالها فقط، بل عبر الامتلاك الفردي لتجليات الحضور الإلهي.

فالتأمل، بحسب فرحات، أكان معنوياً أم مكانياً، يقود إلى الامتلاك: إمتلاك المفزى والمعنى أو امتلاك الصورة وفعل الله، وذلك بصورة فردية نفسية عملية، دون أن يقود ذلك إلى تصوّر التأمل وكأنه جهد شخصي فقط يقوم على تواضع العقل قبل أي أمر آخر.

ونلاحظ أخيراً أهمية المطران فرحات في صياغة المفردات والتعابير العربية الخاصة بالحياة الروحية. بالإضافة إلى تلك المقاطع الفريدة ذات الأسلوب المتناغم: «فاضبط عقلك واحبسه في مكان السر الذي قصدت التأمل فيه، ومارس في هذا النوع فعل المخيلة والفهم والإرادة...». وأيضاً: «وسقّ الإرادة نحو امتلاك ذلك الميلاد لأن يكون في مغارة نفسك...». وتعدّد المفردات ذات الطابع النظامي مثل الموضوع المعنوي أو الشخصي المكاني (للدلالة على التأمل بوجهيه المجرد أو المادي) والامتلاك (للدلالة على الإدراك) وسقّ الإرادة (أي توجيهها) واليوسة (للدلالة على الجفاف الروحي) والمسكنة (للدلالة على الاتضاع)...

لا شك أن نصّ المطران فرحات هو نصّ توليفي بين القديم والحديث والتقليد والحداثة في مجال الخطاب الروحي، وذلك يدلّ على قدرة المؤلف على قراءة علامات الأزمنة. فأمام أجواء العالم الحديث الذي أخذ يذقّ أبواب عالم الشرق وعالم الكنيسة، لا يقف صاحب الرسالة موقف المتفرّج، بل إنه، بما له من علم وخبرة في الحياة الروحية، يدعو إلى تجديد في الحياة الروحية. أمام هذه التحولات وضع فرحات

هذه الرسالة في الصلاة العقلية لتكون أداة ثبات الراهب والعابد في إيمانه وخدمته .

[نصّ الرسالة]^(٨)

فهذه رسالة وجيزة في تعليم الصلاة العقلية جمعها الحقير في الكهنة جبرائيل فرحات الراهب اللبناني واغتناها من رياض كتب رياضات الآباء القديسين الأفاضل، واستقاها من حياض علماء الكنيسة الجامعة الرسولية الأماثل لفائدة المبتدئين بهذه الصلاة، الضرورية للعابدین ليتوصلوا إلى معرفتها من طريقة سهلة تُقَرَّب إليهم ما كان صعباً عليهم، وهو يسأل الرافق عليها والمتأمل فيها ألا ينساه من دعائه .

القسم الأول: في تعريف الصلاة العقلية وفائدتها واستعمالها

أقول إنّ الصلاة العقلية هي ارتفاع القلب والعقل إلى الله، وفائدتها هو ما قاله القديس بوناونتورا^(٩) أن يهذب الإنسان ذاته باستئصال الرذيلة واستئناء الفضيلة، أي إنّ المصلّي يلزمه أولاً أن يقصد في صلاته قلع تلك الرذيلة الطالب التخلص منها، ولا يتحرك إلى غيرها حتى يقلمها، ولو ثبت في ذلك أياماً وشهوراً وهكذا يصنع في استئناء الفضيلة. فيلزم المصلّي من هنا أن يتسلّح بهذا السلاح المثلث وهو أولاً التواضع، ثانياً إمانة الذات، ثالثاً تهذيب الأخلاق، فإذا توشّح المصلّي هكذا فليقرأ قبل شروعه بالتأمل «أبانا» و«السلام» و«قانون الإيمان» مرة واحدة بنفهم وذوق عقليّ ليتحرك القلب نحو إتيان موضوع الصلاة العقلية. ومدة هذه الصلاة ساعة أو نصف ساعة مرتين في النهار بكرة وعشية أو مرة واحدة.

(٨) المقفوفان وما بينهما هي من وضع ناشر المخطوط.

(٩) بوناونتورا هو راهب فرنسيسكاني إيطالي (١٢٢١-١٢٧٤م). من معلمي الكنيسة الغربية ولتأليفه أثر بعيد في التصوّف المسيحي. راجع P. Bonaventura, *De*

القسم الثاني: في موضوع التأمل

موضوع التأمل نوعان: معنوي وشخصي مكاني.

المعنوي هو أن تتخبط لك آية من الكتاب المقدس وتجعلها موضوع تأملك أو تقرأ في كتاب مصنف في التأملات، ومارس في هذا النوع فعل الفكر والفهم والإرادة، أي إنك تتقل بفكرك في ذلك الموضوع حسب اتساع عقلك وجولانه فيه. وهذا التقل يسمى الاعتبار، وتأتي حقيقة بيانه في مكانه. ثم إلحق الفهم بالتفكر وهذا هو عين التأمل العقلي ثم سق الإرادة الصالحة نحو امتلاك ما فهمته من ذلك التأمل، وهذا هو المراد من الصلاة العقلية فيستج لك منه اللطافة والقصد كما نيته في موضعه.

والشخصي المكاني هو أن تبني في مخيلتك مكانًا تتأمل فيه، كأهلك في أماكن أسرار التجسد أو في النعيم والجحيم والمطهر ما يشاكل ذلك. فاضبط عقلك واجبه في مكان السر الذي قصدت التأمل فيه، ومارس في هذا النوع فعل المخيلة والفهم والإرادة، واصنع هنا ما تصنعه في التأمل المعنوي. مثلاً إذا أردت أن تتأمل في المسيح مولوداً فتخيل في عقلك كأنتك حاضراً في بيت لحم، وأنت تنظر جميع الأمور التي تمت في الميلاد الإلهي بعيني المخيلة وافهم أن هذه كلها صار[ت] من أجلك. وسق الإرادة نحو امتلاك ذلك الميلاد لأن يكون في مغارة نفسك وقلبك وقس على هذا أمثاله.

تنبيه

إذا استحسن عقلك فكراً ما بين الأفكار المنسوبة إلى موضوع تأملك سواء [أ] كان معنوياً أم شخصياً ووجدت فيه نوراً ونفعاً، فقف هناك متعلّقاً به ولا تدغ عقلك يتحول عنه إلى غيره حتى تملّ منه وبالعكس. أي إذا رأيت ذاتك لم تتفع في قسم من أقسام ذلك التأمل بعد أن عملت جهلك في اعتباره، فاتركه وخض في قسم آخر منه.

القسم الثالث: في يبوسة القلب وتشبث الفكر وقت التأمل

إن الصلاة العقلية ليست بمتوقفة على خشوع ودموع، ولا على لذة وعذوبة، فإن يحصل ذلك فهو حسن، بل هي متوقفة على عزم ثابت نحو المقاصد التي تبغيها، وهذا هو الضروري في الصلاة العقلية، فإذا عرض لك يبوسة قلب وجمود عقل وقت التأمل، ولم تشعر في قلبك بتسليّة سماوية، لا تضطرب ولا تزعج، بل قف بين يديّ الله متواضعًا معترفًا أمامه بذلتك وحقارتك، وتضرّع إليه مع المرنّث قائلاً: «اللَّهُمَّ اصنع إليّ، معونتي يا ربّ، اسرع إلى إغاثتي»، وقل هذا الإستيخُن الإلهي^(١٠) في كلّ تجربة تعرض لك فإنّه مؤثّر في دفعها. ثم اتل في ذلك الوقت بعض أناشيد^(١١) لفظيّة، أو خذ كتابًا روحيًا وقرأ فيه يا صغاء كلّ ليتهب عقلك فإن ثبتت اليبوسة، فحرّك قلبك بحركات جسديّة متواضعة مثل قرع الصدر والتنهّد وصلب الأيدي أو تكييفها واحن الرأس والمطانيات وقبّل الصليب بالتورّع وما يشاكل ذلك^(١٢). فإن ثبتت اليبوسة أيضًا ولم تشعر أيضًا بالتعزية فلا تضطرب. بل اثبت أمام الله في حالة التورّع والتعبّد بهدوء وسكون وضرب حتى تتمّ مدّة الصلاة فإنّ الله يرضى بصبرك ويعتبر ثباتك بمنزلة صلاتك وقل هكذا يريد الله وأنا مطابق لإرادته. وأمّا تشبث الفكر وقت التأمل يعرض من ثلاثة أسباب كما قال الأنبا كيسان^(١٣)، الأول تبديد عقلنا وأحواسنا وقلبنا بالباطل في نهارنا، واللازم أن نحترس على ضبط حواسنا. الثاني من حسد الشيطان ليعيقنا عن الخير، وعلاجه الالتجاء إلى الله. الثالث من الضعف الطبيعيّ الذي فينا من قبل الخطيئة الأصليّة، وعلاجه الاتضاع وإظهار مسكتنا أمام الله.

(١٠) إستيخُن: آية.

(١١) أفاشين جمع إنشين: صلاة.

(١٢) هذه الأفعال تُدرج كلّها في باب الروابط الخارجيّة.

(١٣) يوحنا كيسان (٣٦٠ - ٤٣٥ م). زار متوحدّي الديار المصرية. له محاضرات ومؤسّسات دبريّة وتعليم روحي. لم يقل إن تشبث العقل يحدث لثلاثة أسباب بل

لأسباب بينها الكسل. راجع Cassianus, *Collations*, 4, 23. P.L. 49/285 sq.

القسم الرابع: في التهيؤ إلى الصلاة العقلية

إذا تقدّمت إلى الصلاة العقلية يلزمك أولاً أن تتضمّن فُهيّ لك للصلاة إمّا شخصياً مكانياً أو آية من الكتاب المقدّس أو أنك تقرّأ قبل التهيؤ بعلّة ملائمة في كتاب مصنّف في التأملات كما تقدّمنا قلنا. وكنّ في القراءة متأبياً مستفهماً ليتأسس ما تقرّأه في ذهنك. ثانياً قف أمام الله جاثياً أو متصبّياً وأنت مكتفّ اليدين على صدرك في شكل صليب بأدب وخوف وإطراق، نادماً ندامة كاملة واغفر لكلّ من أساء إليك. وما أحسن إذا كان في يدك صليب معتدل، وخاطب الله بهذه الصلاة الرجيزة قائلاً: **اللهمّ** قدّرني بنعمتك أن أصرف هذه الساعة في رضاك وخدمتك مع خلاص نفسي ونمّوها في عبادتك. رابعاً^(١٤) احسب أنه ما عاد في الوجود غير الله وأنت، فهو يخاطبك وأنت تخاطبه.

القسم الخامس: في أجزاء الصلاة العقلية

إنّ الأجزاء التي تتألّف منها الصلاة العقلية سبعة:

أولاً الاستعداد، ثانياً الاعتبار، ثالثاً العاطفة، رابعاً القصد، خامساً الشكر، سادساً التقدمة، سابعاً الطلبة. هذا بالوجه الأعمّ وأمّا بالوجه الأخصّ فهي ثلاثة الاعتبار والعاطفة والقصد، والبقية بمرتلة المقدمة والخاتمة.

الجزء الأول: [الاستعداد]

الاستعداد نوعان: قريب وبعيد. فالاستعداد البعيد هو أن تكون سائراً في نهارك بسيرة حسنة ذات تقوى وعبادة متجنباً أسباب الخطايا حافظاً أحواسك باطناً وظاهراً، وغير مفتش على أمور العالم، ولا منهمكاً بالكلام الباطل والمزاح لأنّ هذه كلّها وأمثالها تولّد فيك ضجراً وطيشاً في الصلاة العقلية. وأمّا الاستعداد القريب فهو الحضور الإلهي وأنواعه

(١٤) مكنا في الأصل. سقطت ثالثاً.

ثلاثة : الأول أن تصوّر الحضرة الإلهية، أي إن الله حاضر في كل مكان،
 وقل مع الآباء حقًا إن الله في هذا المكان وأنا لم أعلم. الثاني إن الله
 موجود أيضًا فيك وسط قلبك وعقلك وأنت فيه حيًا وهو فيك. فكأنك
 إسفنجة في ماء والماء داخلها وخارجها وأن أحواسك باطنًا وظاهرًا
 متحرقة به وفيه. فكأنه نفس نفسك، وروح روحك وهذا يسمى حضور الله
 غير متجسد. الثالث أن تصوّر السيد المسيح متجسدًا كأنه أمامك حاضرًا
 كما تصوّر حضور محبتك لا سيمًا إذا كنت أمام القربان المقدس، فإنه
 حاضر لديك حقيقة تحت غوارض الخبز والخمر أو أنك تصوّره ناظرًا
 إليك من علو سمائه وهنا يسمى حضور الله متجسدًا فاستعمل من هذه
 الثلاث نوعًا واحدًا وهذا يكفيك.

تنبيه

إذا كنت جاثيًا أمام الله بوقار واحتشام كليّ ومستحضرًا بإزانتك تلك
 الجلالة الإلهية كما قلنا هنا فاعترف بأنك لست أهلًا لأن تكون ماثلاً أمام
 الله تعالى. واطلب منه معونة لتعبده كما يجب في صلاتك وقل مع
 المرتّل: «لا تطرحني من أمام وجهك وروحك القدوس لا تنزع
 مني»^(١٥). ثم استشفع مريم والدة الإله وخطيبها مار يوسف وملاكك
 الحارس والقدّيس سميئيل.

الجزء الثاني: [الاعتبار]

الاعتبار هو ترديد الموضوع في العقل كانتقالات فكرية ويلزمك في
 استعمال الاعتبار ثلاثة أمور وهي أقسام التأمل بوجه الاختصار. الأول
 التفكير في حقيقة الموضوع سواء أكان معنويًا أم شخصيًا أي أنك تردّد
 فكرك في فوائده ومضراته وحيلاته وتكوينه وسببه وغايته ثم نفهم معنى ما
 اعتبرته جيدًا. الثاني مخاطبة النفس كأنك تربها حقائق ما افكرت به
 وفهمته، ثم سق الإرادة إلى امتلاكها والتجنب منها موردًا أسبابًا لذلك

(١٥) مزمور ٥٠، ١٣.

وهذا هو العاطفة. واعزم على السلوك باكتساب معنى الموضوع وهذا هو القصد والنتيجة. وهذا هو نفس ترتيب الوعظ وهو الطريقة الأقرب إليه. مثلاً إذا جعلت موضوع تأملك التواضع، إفتكر في شرف هذه الفضيلة وضرورتها لنا، وإن ابن الله جاءنا بها وعلمنا إياها بعمله وعلمه. وكن مستفهماً كلما اعتبرته. وهذا هو القسم الأول. ثم خاطب نفسك قائلاً لها: تأملي يا نفسي في عظم هذه الفضيلة التي لا خلاص لك بذونها. واسألها هل سَلَكتَ بها أم ذاقتها أم اعتبرتها واستفهم ذلك منها وهذا هو القسم الثاني. ثم وئخ نفسك لأنها أضاعت مثل هذه الدرّة الثمينة واعتاضت عنها بزلل الكبرياء، وفهمها مقدار الريح الذي أضاعته وخسرته. والخسران الذي ريحته وهذا هو القسم الثالث. وتوسّع بفكرك في كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة، ثم سئِ الإرادة على امتلاك فضيلة التواضع موردًا من عندك أسبابًا تمنعك في ذلك وهذه هي العاطفة. أعزم على أن تكون متواضعاً من الآن فصاعداً وهذا هو القصد وسئِ على هذا الترتيب استعمال كل فضيلة ورذيلة. ونوع هذا الاعتبار يخص الأقوياء في التأمل الذين [لا] يخفاهم تنقل الفكر في العقل وأما إذا كنت مبتدئاً في صناعة التأمل أو كان فكرك قاصراً عن الاعتبار، فلك آلات إذا استعملتها تسهل عليك معاطاته وأنا أذكرها لك بعد جزء القصد.

الجزء الثالث: [العاطفة]

إن الاعتبار يؤثر في النفس حركات حميدة تلاءم موضوع التأمل، وهذه الحركات تسمى العواطف، جمع عاطفة، وهي بمتزلة الأسباب لأن النفس تعطف بها نحو عشرة أمور: بوجه الاختصار أولاً محبة الله والقريب، ثانياً الرغبة في السعادة الأبدية، ثالثاً الرهبة من الدينونة وجهنم، رابعاً بغض الخطيئة، خامساً مذمة العالم ومجلده، سادساً التعجب من حركات الله معنا، سابعاً الخجل والحياء من خطايانا السالفة، ثامناً الخوف من الموت والردل، تاسعاً الانكفاء على رحمة الله تعالى، عاشراً الاقتداء بسيرة يسوع والتشبه بقديسه. فهذه إذا استجها العقل عند تمام الاعتبار، تؤثر في النفس إحدى هذه الحركات - حسب اقتداء

الموضوع - فيثبت العقل حيثئذٍ مستمرًا في هذه العواطف حسب استطاعته على حبّ الفضيلة ونبذ الرذيلة. ومن شأن هذه العواطف أن تكون بعد الاعتبار حسب ترتيب أجزاء هذه الصلاة. لكن إن رأيت قلبك قد تحرك قبل جزء الاعتبار نحو هذه العواطف الروحية، فاطلق له العنان ودع جزء العواطف الشهي غايه جزء الاعتبار. النتيجة هي أنك تثبتت بالعواطف، متى تحرك قلبك بها سواء أكان ذلك بعد الاعتبار أو قبله.

الجزء الرابع: [القصد]

القصد هو ممارسة السيرة وتغيير الأخلاق التي فهمتها من الاعتبار وتمكنت فيها الإرادة، وتحرك القلب بها بالعواطف، وهذا ضروري جدًا وهو غاية الصلاة العقلية. مثلاً إذا رأيت قلبك تحرك بعاطفة الاقتداء بالمسيح الذي قال: «يا أبتاه اغفر لهم»^(١٦) وأردت أن تغفر لأعدائك، فإن هذا لا يخفاك ما لم تقصد أنك ما عُدت تفتاظ من الكلام المنكي الذي تسمعه من الناس لأن هذه هي الوسطة التي تصلح بها سيرتك وتقف أخلاقك وهذا هو القصد. فالعاطفة تفيدنا حبّ الفضيلة ونبذ الرذيلة المسبب من أحد تأثيرات الاعتبار. وأمّا [القصد] فإنه يفيدنا ممارسة الفضيلة وترك الرذيلة. إنهم الفرق فليذا تكون رتبة القصد بعد رتبة العاطفة.

تنبيه

إن الفائدة الناتجة من التأمل هي أن تثبت على مقاصدك الصالحة التي اعتمدتها في صلاتك بعد خروجك من التأمل وإلا فصلاتك باطلة. مثلاً إذا أحببت العقّة حباً بالله أو بالتريب أو خوفاً من الدينونة وما يشاكل ذلك من العواطف المقدم ذكرها، فهذه هي العاطفة. وإذا قصدت أنك لا تعود تدنسها فهذه هو القصد. فإذا فرغت من صلاتك فاثبت على هذا القصد حتى تتمه لأنه هو الغاية الماثورة من الصلاة العقلية كما قلنا غير مرّة.

(١٦) من كلمات السيد يسوع المسيح على الصليب. راجع لو ٢٣، ٣٤.

تنبيه

متى فرغت [من] صلاتك العقلية وأخذت في ممارسة أشغالك العملية بمقتضى وظيفتك، يلزمك أن تصون قلبك ولسانك من الباطل وتحفظ في نفسك المقاصد التي اكتسبتها في الصلاة العقلية. قال القديس يوحنا السلمي^(١٧): لا تبدد في اللجة تبديدًا مذمومًا ما جمعت في الميناء جمعًا محمودًا، أي لا تضيع في لجة أشغالك ذلك الخير الذي ربحته في صلاتك. حقًا إن الصلاة والعمل الدنيوي مطلوبان منّا ومرتبّان علينا من الله لكن إذا تركنا الصلاة يلزمنا أن نمارس عمل البد بروح التواضع والعبادة فيقتبلان حيثن قبله السلامة.

ذكر آلات الاعتبار للمبتدئين

ها أنا أضع لك هنا ثلاثة أنواع من آلات الاعتبار لتسهل عليك طريقة التأمل. وتكون لك بمنزلة قاعدة تبنى عليها اعتبار كل موضوع تتأمل فيه.

الآلة الأولى

ظروف الحدوث ستة: أولاً سنّ، ثانيًا متى، ثالثًا أين، رابعًا بماذا خامسًا لماذا، سادسًا كيف. مثال ذلك، إذا أردت أن تتأمل في آلام يسوع اعتبر هذه الظروف الستة قائلاً في فكرك: مَنْ الذي تألم؟ هو يسوع ابن الله خالق الخلايق كلّها. متى تألم؟ حين أراد خلاص الإنسان. أين تألم؟ في العالم الباطل. بماذا تألم؟ بناسوته البريء من كلّ نقص. لماذا تألم؟ ليقي عنا خطايا الإنسان ويخلصه. كيف تألم؟ بالعذاب المرّ والصلب الأمرّ وتوسّع بفكرك في كلّ ظرف من هذه الظروف الستة ويجوز لك أن تستعمل منها بعضًا وتترك بعضًا وأن تقلّم وتؤخّر فيها حسب اقتداء الموضوع الذي اتخذته. ثمّ إلحق الفهم بالفكر والاعتبار في كلّ ظرف اعتبرته. واختم

(١٧) متروحد في جبل سيناء. توفي حوالي ٦٤٩م. لقّب بالسلمي نسبة إلى عنوان كتابه شلم الفرعوس، وقد ازدهر بين الرهبان.

اعتبار الظروف كلها بحركة الإرادة نحوها. العاطفة: محبة الله الواجبة علينا، القصد: أقصد أن تحب الله فوق كل شيء.

الآلة الثانية

فحص الضمير الخصوصي وهو خمسة: أولاً فحص الضمير بالكلام، ثانياً فحص الضمير السماع، ثالثاً فحص الأفكار، رابعاً فحص الاحتمال، خامساً فحص الأعمال. مثال ذلك إذا أردت اعتبار هذا الفحص، قل في فكرك في فحص الكلام أن يسوع كان يتألم ولا يتكلم، وأنا أتذمر في وقت التجارب. فحص السماع، إن يسوع كان يسمع ألفاظ الشتائم والهزء وأنا أريد سماع المذحة والاعتبار وسماع المزاح والكلام الباطل. فحص الأفكار: إن يسوع كان مفتكراً في آلامه بخلاصي، وأنا لا أزال مفتكراً بالخطايا والأباطيل. فحص الأعمال: إن يسوع كان يحتمل مرارة الآلام من أجلي وأنا لا أحتمل كلمة واحدة مرة من أجله. فحص الأعمال: إن يسوع كان يجاهد بالعمل من أجل خلاصي وأنا كسلان عن خلاص نفسي. وتوسل بفكرك في اعتبار كل فحص من هذه الخمسة ويجوز لك استعمال بعضها والتقديم والتأخير فيها. ثم الحق الفهم كاعتبارك كل فحص منها واختمه بحركة الإرادة. العاطفة: الاقتداء بسيرة المسيح. القصد: أقصد أن تقتدي بسيرته وقد أثبت اعتبار هذا الفحص الخصوصي الأنبا روديكونس اليسوعي في الجزء الثاني من كتابه الكمال المسيحي^(١٨).

الآلة الثالثة

الحواس هي خمس^١ أولاً النظر، ثانياً السمع، ثالثاً الشم، رابعاً -
اللمس، خامساً الذوق. مثال ذلك في فضيلة العقّة: النظر يحركه الله لأن أنظر بعين العقّة، وأنا أحركه إلى الجمال الشهواني. السمع يحركه الله لأن أصغي إلى كلام الله في العقّة والقداسة، وأنا أحركه إلى الكلام الرديء.

(١٨) راجع الكتاب الأول من كتاب الكمال المسيحي، ترجمة بطرس فرماج اليسوعي، ص ٣٤٩، مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت، ١٩٦٨.

النجس. الشَّم يحركه الله لأن أستشفق رائحة العفّة السماوية، وأنا أحرّكه إلى الروائح المهيّجة إلى الزنا. الذوق يحركه الله إلى أن أذوق طعم العفّة في قلبي وعقلي وأنا أحرّكه إلى الذوق النجس والتقيّل الرديء. اللّمس يحركه الله لأنّ أَلْمَسُ بآدب واحتراس عفيف وأنا أحرّكه إلى اللّمس النجس الفَسيق وقسّ على هذا اعتبار جميع القضاة والرذائل وتوسّع بفكرك في اعتبار كلّ حاسة من هذه الأحواس الخمس ثمّ الحقّ الفهم باعتبارك كلّ حاسة منها واختمه بحركة الإرادة. العاطفة: ضبط العفّة خوفاً من دينونة الله. القصد، اقصد أن تعيش عفيفاً بحفظك حواسك وهذه الآلات تناسب المبتدئين في تعليم الصلاة العقلية لأنها تسهّل عليهم طريقة الاعتبار المستصعبة. وأمّا الأقرباء في هذه الصناعة فلا يحتاجون إلى ممارسة هذه الآلات بل يكتفون بالفكر والفهم والإرادة ويتصرفون بالاعتبار بحسب قوى تصوّرهم ويمتلكون العواطف والمقاصد بكلّ سهولة. واختم صلاتك العقلية بهذه الأجزاء الآتي ذكرها.

الجزء الخامس: [الشكر]

أشكر الله عند انتهائك من الصلاة لأنّه منحك بنعمته العواطف الصالحة والمقاصد الحميدة التي اعتبرتها في موضوع تأمّلك. وأنواع هذا الشكر ثلاثة كما قال مار توما اللاهوتي^(١٩). الأوّل: الشكر باللسان أي قل: «أشكرك يا إلهي إلى الأبد وأكلّف جميع محبّيك ليُشكروك معي وأكلّف جميع الخلائق الناطقة وغير الناطقة على هذا الشكر. وهذا أيضاً ليس هو كفراً لك، يا يسوع حبيبي بل أطلب إليك أن تحبّ أنت ذاتك وتمدحها وتعظمها معي لإحسانك عليّ». الثاني: الشكر بالقلب وهو معرفة الجميل، أي قل ليسوع: «الآن عرفت إحسانك إذ نبّهتني على ما كان ضرورياً لي في هذه العواطف والمقاصد مع أنني كنت أهملًا للانتقام.

(١٩) هو توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م). برع في اللاهوت والمحاكمة. له الخلاصة اللاهوتية. بخصوص موقف توما في صلاة الشكر، راجع مقالة «Action de grâces» في *Dictionnaire de Spiritualité*.

فأنا أسجد أمامك ولست أملاً لأن أرفع نظري إليك». فاحنْ رأسك وقَبِلْ الأرض أمام يسوع. الثالث مقابلة الجميع، أي قل: «أنا مدين لك يا رب وأنتي ملترم بخدمتك ومحبتك حياتي كلها فاعطني نعمة في هذه العواطف لأنها بغير ثباتك غير ثابتة، كما قلت: «بغيري لا يمكنكم أن تعملوا شيئاً». أنت هو كرمة الحق، تُبثني فيك لأنني بأثمار كثيرة»^(٢٠).

الجزء السادس: [الطلبية]^(٢١)

أطلب من الآب السماوي لأن يعطيك أنعام ابنه الوحيد وفضائله، وأن يبارك عواطفك ومقاصدك لكي يتممها واطلب من أجل الكنيسة المقدّمة الرومانية ومن أجل رأسها الحبر الروماني مع جميع رؤساء الكهنة المحققين والكهنة والرهبان الكاثوليكين ومن أجل إخوتك ومحبيك والذين طلبوا منك الصلاة عنهم، ومن أجل المؤمنين كافة أحياء وأموات ومن أجل الخطاة ليتوبوا والمرضى ليشفوا والمتضايقين ليصبروا وينجوا ومن أجل الكفار والهرطقة والمعاندين ليرتدوا إلى الإيمان المستقيم. واطلب هذا جميعه باستحقاق آلام يسوع المسيح وشفاعة مريم والدة الإله وجميع القديسين. وإن طلبت شيئاً من الضروريات الجسدانية فاطلب فيه مشيئة الله ومطابقة. ثم اختم صلاتك بتلاوة أبانا والسلام واتخذ لك من تأملك بعض معاني روحية لترددها بفكرك نهارك كله ويجوز لك أن تستعمل أفعال الشكر والتقدمة والطلبية فيما بين الاعتبارات. لكن يلزمك تكريرها أيضاً في ختام صلاتك هنا. هذا ما تيسر لنا جمعه وتأليفه من كتب كنيسة الله. فاذكرني يا أيها المتأمل في ختام تأملاتك ليرحمني الله.

(٢٠) راجع يوحنا ١٥، ٤.

(٢١) سقط الجزء السادس، وهو التقدمة، من النص المخطوط وحلّ مكانه الجزء السابع، الطلبية.